المارستان العضدى فى بغداد ودوره الطبى والتعليمي فى العصر العباسى الأخير

البيمارستان مفهومه ونشأته:

"البيمارستان" لفظة فارسية الأصل مُركّبة من كلمة "بيمار" وتعني مريض أو مُصاب، و "ستان" بمعنى دار، وبهذا يكون معنى "بيمارستان" "دار المرضى"، واختُصِرَت فيما بعد على سبيل التخفيف لتصبح "مارستان". وهو ما سيُعتمد كمصطلح في هذه الدراسة. وقد أُطلِقَت هذه اللفظة على المستشفيات في العصور الإسلامية، كما أخذت أحياناً تسمية أخرى، هي "دار الشفاء". وهي بمثابة المستشفيات العامة التي تعالج فيها جميع الأمراض الباطنية والجراحية والرَمَدِية والعقلية. ولما أصابتها الكوارث هجرها المرضى إلا من المجانين حيث لم يكن لهم مكان سواها، فأصبحت الكلمة مرتبطة بهؤلاء المرضى فقط.(١) ومن هنا فَقَدَت لفظة (البيمارستان) مدلولها الأصلي، واقتصر إطلاقها على مصحّ الأمراض العقلية الذي عُرِفَ في العصور المتأخرة باللهجة العامية بـ (المُرستان).(٢)

ويرى بعض المؤرخين المسلمين أن نواة هذه البيمارستانات في الإسلام؛ هي تلك الخيمة التي أمر النبي "بإقامتها في غزوة الخندق، وذلك لما أصيب سعد بن معاذ، فضرب النبي"خيمة في المسجد ليعوده، وفي رواية أخرى أن رسول الله قد جعل ابن معاذ في خيمة لامرأة من "أسلم" يقال لها "رُفَيدَة"، وكانت تداوي الجرحى، وبذلك يكون النبي أول من أمر بالبيمارستان الحربي المتنقل.(٣) إلا أن ثمة إجماع على أن الوليد ابن عبد الملك منشئ أول مارستان بمعناه الصحيح في الإسلام في سنة (٨٨هـ/ ٧٠٦م)، وأول دار للمرضى، فجعل فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم الأرزاق، وفي ذلك يذكر الطبري في تاريخ الرسل والملوك: "كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم، بنى المساجد: مسجد دمشق، ومسجد المدينة، ووضع المنابر، وأعطى الناس المجذومين، وقال: "لا تسألوا الناس"، وأعطى كل مُقْعَدٍ خادماً وكل ضرير قائداً"، ثم أنشأ زمن الأمويين أيضاً بيمارستاناً آخر في مصر في زقاق القناديل.(٤)

وإذا كان الأمويون هم أول من شُيِّد المارستانات بمفهومها المتعارف عليه، إلا أن تطورها وتكاثرها كان في العصر العباسي، حيث شُيِّد عدد كبير منها في بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها من العواصم الإسلامية والمدن الكبرى، وكانوا يهتمون بها اهتماماً مبالغاً فيه، فتخيَّروا لها الأماكن الصحية الملائمة لبنائها فيها، وأُلحقت بها مدارس للتعليم وأمكنة للاستشفاء وتمرين طلاب الطب،(٥) وبالتالي فقد جمعت البيمارستانات بين تعليم الطب وتطبيب المرضى. وكان لكل هذه المؤسسات أوقاف يُصرف عليها منها، وأنيط إدارتها بالمديرين المنتقين بدقة

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج ٢١٧/٦، مادة "مرس"؛ الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م، ٢٤٦/٤؛ كوركيس عواد، المدرسة المستنصرية، ص٩٢؛ عبدالحميد العلوجي، تاريخ الطب في العراق، مكتبة أسعد، ١٩٦٧م، بغداد، ص ١١؛ أحمد عيسى بك، تاريخ المارستانات في الإسلام، د.ط.، دار الرائد العربي، القاهرة. ص ٤.

(٢) أحمد عيسى، تاريخ المارستانات في الإسلام، د.ط.، دار الرائد العربي، القاهرة . ص ٨.

(٣) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٤) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق، ص ٣٣٢؛ القفطي ، المصدر السابق ، ص ١٤٩.

(٥) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق، ص ٣٣٧

شديدة، وكانوا غالباً من أمراء البلاد أو من قواد الجيش، وأُوكل أمر التطبيب فيها إلى أطباء معينين بعد اجتيازهم اختبارات خاصة بجدارة وكفاءة، وعُيِّن لكل منها طبيب وجراح وكحال وفاصد، فضلا عن عدد من الخدم لتأمين راحة المرضى، وكان يُعطَى لكل طبيب بعد الامتحان إجازة تخوِّل له العمل في دائرة اختصاصه.[١] وتوافرت في مارستانات الخلفاء والسلاطين كل أسباب الراحة والرفاهية من أسِرَّة وثيرة ناعمة، وحمامات فخمة، ومن المعلوم أن هذه البيمارستانات على غناها ورفاهيتها؛ كانت تفتح أبوابها للفقراء ولكل أبناء الشعب مجاناً دون تمييز، وكان الخلفاء وكبار موظفي الدولة هم من يدفع أجور الأطباء والصيادلة وحاجيات المرضى في البيمارستانات التي أقاموها وذلك بحبس الأوقاف عليها. [٢]

ويمكن تقسيم المارستانات في ذروة ازدهارها خلال هذا العصر إلى قسمين:

مارستانات ثابتة: وهي التي أُقيمت لها مبانٍ خاصة بها، كالمارستان الناصري في القاهرة، والمارستان النوري في دمشق، والمارستان العضدي في بغداد، وهذه المارستانات انقسمت إلى مارستانات عامة وأخرى خاصة.

مارستانات متحركة: وهي التي تُنقل على ظهور الدواب، ويتم تنقيلها من مكان إلى آخر كلما دعت الحاجة إليها، ومن أشهر هذه الأنواع "مارستانات السبيل" التي كان يأمر بها الخليفة العباسي فتُقام في المشاعر المقدسة لمداواة المرضى من حجاج بيت الله الحرام، والمارستانات العسكرية، وهي التي كانت تتحرك مع الجيوش إلى حيث معالجة الجرحى من الجيش الإسلامي، ومارستانات الأوبئة التي تتنقل إلى أماكن انتشار الوباء المختلفة.[٣]

تطور المارستانات في ظل العباسيين

نشأت المارستانات في بغداد في بدايتها بسيطة، ولكنها بمرور الأيام توسعت واتخذت شكلها المتكامل، بعد أن أُدخل عليها الكثير من الإضافات والتحسينات، فأُعِدَّ لها من وسائل الراحة والترفيه الشيء الكثير، كما سيتضح لاحقاً. وقد قيل أن الخليفة أبا جعفر المنصور أول من وضع أصول بناء المارستانات في العصر العباسي، ثم سار خلفاؤه على نهجه، وزادت المارستانات فيما بعد في بغداد زيادة كبيرة في سنة (٣٠٧هـ/ ٩٢٠م) إلي حد أن الطبيب سنان بن ثابت بن قرة[٤] تقلَّد خمسة منها.[٥] فقد رُوي أن المنصور شجع على إنشاء المارستانات، وأنشأ مارستاناً للعميان وداراً للأيتام والقواعد، وخصص مكاناً للمجانين،[٦] يتلقون فيه العلاج، وعمل على استقدام جرجوريوس

---

(١) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق، ص ٣٣٨.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) أحمد عيسي بك، مرجع سابق، ص ١٠.

(٤) سنان بن ثابت بن قرة الحرّاني: عالم وطبيب، ظهر في العصر العباسي، خدم عند الخليفة المقتدر بالله، وكان رئيس الأطباء، وخدم عند القاهر بالله والراضي، وتوفي في بغداد عام ٣٣١هـ/ ٩٤٢م انظر: القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٤٧، ٥٠؛ ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٢٠٠، ٣٠٢.

(٥) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٦٠.

(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣١.

الطبيب الفارسي المشهور،[١] واهتم بمثل هذه الأعمال من استقطاب للأطباء، كما اهتم بالناحية الصحية والنفسية للعامة.[٢] كما أن الخليفة هارون الرشيد(١٧٠-١٨٥هـ/ ٧٨٦-٨٠١م)، كان أكثر اهتماما ببناء المارستانات، وتطويرها، فأقام بيمارستاناً كبيراً في بغداد،[٣] وألحق به مكتبة علمية ضخمة،[٤] كذلك؛ قام المأمون ببناء مأوى للأيتام والنساء والعاجزات. كما انتشرت في عهده وعهد ابنه المعتصم بالله المارستانات المتنقلة في بغداد؛ كالمارستان السيَّار في معسكر الأفشين قائد جيوش المعتصم، ومارستان محمد بن ملك شاه الذي كان يصحب المعسكر أينما ذهب، وكان يُنقل على أربعين جملاً بإشراف الطبيب عبيد الله بن المظفر. وقد سبق العباسيون غيرهم فيما يسمى اليوم بـ"بعثة الحج الطبية"، حين خرج من بغداد محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر الوزير طالباً الحج، وقد عزَّز سفره بجهاز طبي، حيث اشترى ستمائة جمل لحمل المنقطعين وأمتعتهم. ولم تقتصر المارستانات على بغداد فقط؛ بل انتشرت في مختلف البلاد الإسلامية، فقد كتب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله يقول له: "وانصب لمرضى المسلمين دوراً تقيهم، وقُوَّاماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم".[٥] كما أنشأ المعتصم بالله مارستاناً في بغداد أشرف عليه بنفسه، وأوكل بناءه إلى الطبيب أبي بكر الرازي، وكان الخليفة يُخرج كل يوم عشرة دنانير شهرياً كنفقات للبيمارستان والأطباء، وسُمي هذا المارستان بالصاعدي أو العتيق[٦].

وفي عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/٨٧٢-٩٣٢م) ارتقت مهنة الطب، وازداد بناء المارستانات، وأصبح امتحان الأطباء داخل المارستانات شرطاً أساسياً[٧] لمزاولة مهنة الطب، خاصة عندما علم الخليفة المقتدر أن أحد الأطباء ببغداد أخطأ في تشخيص حالة أحد مرضاه، ووصف له العلاج فمات على أثر ذلك، فأمر الخليفة المحتسب بأن يمنع جميع الأطباء من ممارسة المهنة حتى يجتازوا اختبارا خاصا يجيز لهم ممارستها، وكلف سنان بن ثابت بن قره بإجراء هذا الامتحان، وفعل سنان ذلك، وأجرى الامتحان لما يقارب تسعمائة طبيب في بغداد[٨]. كما أشار سنان بن قرة عام (٣٠٦ هـ /٩١٨م) على الخليفة المقتدر[٩]، بأن يبني بيمارستاناً في بغداد بمحلة باب الشام[١٠]، فكلفه الخليفة بذلك خدمةً للمسلمين، وتخليداً لذكراه وسماه بالمارستان المقتدري، وأنفق الأموال الطائلة والنفقات الكثيرة من مال الخلافة بما يقارب مئتي دينار شهرياً[١١]. وفي أول محرم من عام (٣٠٦هـ/ ٩١٨ م) تم

---

(١) القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص ٤٦، ٦٧. ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ١٨٣.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٣٠٦.

(٣) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٦٤. ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ١٨٨.

(٤) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ١٨٨.

(٥) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٦٢.

(٦) ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص٣١٢.

(٧) القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص ٨٦،١٠٢، ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٣٠٢.

(٨) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٠؛ ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٣٠٢.

(٩) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٣٠٢.

(١٠) ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٠٨؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٨٦.

(١١) القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص ٨٦.

افتتاح مارستان أنشأته السيدة "شغب"[١] أم الخليفة المقتدر بالله العباسي، وتم افتتاح هذا المارستان في نفس العام، وبلغت نفقته ستمائة دينار في الشهر، وأكثر من سبعة آلاف دينار سنوياً، وافتتح هذا المارستان ثابت بن قرّه، ورتب به الأطباء والخدمة والقومة بأمر من السيدة أم الخليفة[٢]. وفي عهد خلافة المقتدي (٤٦٨-٤٨٧هـ/ ١٠٧٥-١٠٩٤م) بدأ الطاعون[٣] في بغداد ونواحيها، وأمدَّ المقتدي بأمر الله الفقراء بالأدوية والمال، وطلب من أطباء المارستان مراعاة جميع المرضى بالعلاج المجانيّ.

كما أقام الخليفة العباسي قبل الأخير؛ المستنصر بالله؛ أبو جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله (٦٢٣-٦٤٠هـ/ ١٢٢٦-١٢٤٢م) مارستاناً في مكة بالجانب الشمالي من المسجد الحرام في عام (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) كما ابتنى مارستاناً خاصاً بالمدرسة المستنصرية، وزوده بما يلزم من شيوخ أطباء وعلاج، ويعرف بالمارستان المستنصري نسبة له، وأوقف عليه الوقوف، وتاريخ وقفه (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)، كما اقام في دجلة مارستاناً رتب فيه مطبخاً للفقهاء ومزملة للماء البارد، وذكر الذهبي أن المستنصر بالله ابتنى أيضاً عدة مارستانات في الحرمين، ودوراً للمرضى، وهذا يدل على بنائه أكثر من بيمارستان. وزادت المارستانات في الدولة العباسية، وتطورت حتى توفر منها في بغداد وحدها ما يزيد عن العشرة، وفي الأقطار الإسلامية عامة ما يزيد على المائة[٤].

كذلك؛ عني العباسيون في بغداد بإنشاء دور للمجانين والمحرورين، وقد تطورت هذه الدور حتى أصبحت مارستانات كبيرة تضم إلى جانب ردهات المرضى؛ مخازن الأدوية والأترية، ومكتبات وقاعات لتدريس الطب، أصبحت فيما بعد مدارس للطب كان لها فضل كبير على العالم. ومن أكبر مارستانات العصر العباسي وأهمها: المارستان العضدي في بغداد، الذي ازدهر في ظل وجود المارستان النوري في دمشق، والمارستان المنصوري في القاهرة. وإلى جانب هذه المؤسسات الكبرى؛ اشتهرت مارستانات أخرى، خصوصاً في بغداد، فكان يتسابق على إنشائها الخلفاء ونساؤهم، ووزراء الدولة، كما اشتهرت نخبة ممتازة من الأطباء الذين تركوا تراثاً طبياً أسدت به بغداد خدمات جليلة للإنسانية[٥].

والواقع أن علم الطب بعامة ازدهر ازدهارا كبيرا في ظل حكم العباسيين، نظرا لاهتمامهم بالعلوم الطبية، وتشجيعهم للأطباء وتشييدهم للمدارس الطبية [٦] التابعة للمارستانات، فضلا عن تشجيعهم عقد ما يشبه المؤتمرات الطبية التي حضر إليها الأطباء من كافة البلاد والأقاليم التابعة للدولة[٧]. ومن أثر ذلك؛ بدأت المارستانات تأخذ

---

(١) شغ – شغب – أم الخليفة المقتدر (٣٢١ هـ/ ٩٣٣ م)، وأم المقتدر بالله كانت من جواري المعتضد بالله أبي جعفر أعتقها وتزوجها، آلت الخلافة إلى ابنها المقتدر وعمره ثلاثة عشر عاما، واستولت على أمور الخلافة، وتعرف بأنها امرأة صالحة، وديّنة ومتصدقة للأموال وتزود الحجاج بالطعام والدواء وتسهل لهم الطرقات. الأعلام، الزركلي، ج ٣، ص ١٦٨.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٣٠٢.

(٣) الطاعون: هو الموت من الوباء، والجمع طواعين. الرازي، مختار الصحاح، ج ١، ص ١٦٥.

(٤) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٢٤٥.

(٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٨٣.

(٦) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٦٤؛ ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ١٨٣.

(٧) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٠٢، ١٧٢؛ ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ١٨٨.

شكلاً حضارياً فائق الدقة والتنظيم، فازدهرت بها مهنة الطب، وأصبحت مهنة مرموقة لا يعبث بها المحتالون والسحرة وأنصاف الأطباء، لذا تبارى الخلفاء والسلاطين والأمراء والنساء وأهل اليسار على تشييدها، وأشرفت عليها الأوقاف بشكل مباشر، وهذا أول تطور يدخل على المارستانات كما ذكرت كتب التاريخ والرحالة، وتم تنظيم العمل بها، وتقسيمها إلى أقسام خاصة وأخرى عامة ليستفيد منها كافة أفراد الشعب صغاراً وكباراً، من مسلمين وأهل ذمة، أغنياء وفقراء، وبالتالي أصبحت كل مدينة بها مارستان كبير عام على الأقل.

نشأة المارستان العضدي

في الجانب الغربي من بغداد؛ أنشأ عضد الدولة البويهي[١] في موضع قصر الخلد الذي كان متهدماً آنذاك[٢] مارستانه الذي عُرف باسمه، واستغرق بناؤه ثلاث سنوات (٣٦٨-٣٧٢هـ/ ٩٧٨-٩٨٢م). وقد أوقف عليه عضد الدولة الأوقاف الكثيرة، وأنشأ حوله سوقاً يسمى بسوق المارستان، ورتب فيه الأطباء والخزان، وجلب له الأدوية والعقاقير[٣] والأدوات الصحية، ورتب به ما يقارب أربعة وعشرين طبيباً[٤]، واستمر هذا المارستان ثلاثة قرون. ويشير المؤرخون إلى أن الرازي اجتمع على بناء هذا المارستان، وأن عضد الدولة استشاره في الموضع الذي يُبنى فيه، فأمر الرازي بتعليق قطع اللحم في كل أنحاء بغداد، واعتبر أن القطعة التي لا يصيبها عفن، ولم يتغير فيها لون اللحم بسرعة هي أفضل مكان لبناء المارستان، وأشار على الموضع الذي بُني فيه المارستان، وأشرف عضد الدولة بنفسه[٥] على بنائه.

كذلك؛ قيل أن عضد الدولة قصد في هذا المارستان أن يكون فيه أفاضل وأمهر الأطباء وأعيانهم، وأمر بإحضار الأطباء المشهورين، واختار منهم مئة وخمسين طبيباً حسب خبرتهم بصناعة الطب، فكان الرازي من أولهم، وجعله ساعورا له[٦]، وجلب إليه الأطباء من كل موضع في بغداد، وأنفق عضد الدولة الأموال الطائلة على على بنائه، وقيل ليس في الدنيا مثل ترتيبه وتزيينه[٧].

وقد عُرف عن عضد الدولة جهوده المعطاءة في بناء أكثر من مارستان، فعمل على بناء الكثير منها وإن لم يردنا ذكرها، فكانت سُنَّته البناء والعمران، وأحب العلماء وقرَّبهم إليه[٨]، كما عُرف عنه تعيينه للأطباء بنفسه، فقام

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٥٤.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٢٠.

(٣) العقاقير: هي أصول الأدوية وأحدها عقار، وهي الأدوية التي يستشفى بها، وهي كل نبت ينبت مما فيه شفاء، لذلك هي من أصول الأدوية. الرازي، مختار الصحاح، ج ١، ص ١٨٧؛ ابن منظور، لسان العرب، ج ٤،ص ٥٩٩.

(٤) القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص١٤٤.

(٥) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٤١٥.

(٦) الساعور: مقدم الأطباء ورئيسهم؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١١٨؛ الزبيدي، ص ٤٦٨ مادة سعر؛ جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ٤٦٨؛ تاج العروس، ١٨٩/١.

(٧) الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ١٥٦.

(٨) ابن خلدون، تاريخ، ج ٤، ص ٦٠٦.

بتعيين "نظيف النفسي الرومي" العالم بالنقل اليوناني إلى العربي[١]، ما يدل على مدى اهتمامه بالأطباء المترجمين من أجل خدمة المارستان وتطويره.

إن شهرة هذا المارستان قد اقترنت بتجهيزه بما يحتاج من الأطباء والعاملين، فضلاً عن الأدوية والأثاث واللوازم الأخرى، قال ابن الجوزي في حوادث سنة (٤٢٢هـ/ ٩٨٢ م) :"وفتح المارستان الذي أنشأه عضد الدولة في الجانب الغربي من مدينة السلام، ورتب فيه الأطباء والمعالجون والخزان والبوابون والوكلاء والناظرون ونقلت إليه الأدوية والأشربة والفرش والآلات[٢].

والظاهر أن القائمين على رعايته وجَّهوا اهتماماً خاصاً بتعيين الأطباء في هذا المارستان بحسب اختصاصاتهم الطبية، إذ أُختير أربع وعشرون طبيباً من بين ما يزيد على مائة طبيب كانوا متوفرين في بغداد، ليصبح الجهاز الطبي الثابت للبيمارستان خمس وعشرين طبيباً يرأسهم ساعور لتحديد مسئولياتهم وتوجيههم لخدمة للمرضى وسائر الناس[٣]. ويبدو أن بعض التجهيزات الطبية التي زُوّد بها المارستان المذكور، والمشتملة على الأدوية والعقاقير المختلفة فضلاً عن الأجهزة والأدوات الأخرى؛ بقيت مستمرة حتى القرن الخامس الهجري، فقد قال الوزير أبو الشجاع الروذراوري واصفاً الجهود المبذولة في ذلك " نقل أنواع الآلات والأدوية من كل ناحية إليه ما يدرك العيان بعضه إلى الآن"[٤]

والراجح أن ما أشار إليه أبو شجاع الروذراوري يصح على بداية القرن الخامس الهجري حينما كان المارستان العضدي يتمتع بسلامة بنائه وأوقافه وأدواته الطبية قبل أن يتعرض إلى الإهمال أو التسلط على أوقافه وأدواته الطبية من قبل الطامعين، بالإضافة إلى الخراب الذي أصابه من جراء فيضان نهر دجلة سنة (٤٤٦هـ/ ١٠٧٤م)، والظاهر أن حالته استمرت كذلك حتى سنة (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) عندما تولى ابن يوسف الملقب بالشيخ الأجَلّ[٥] (ت٤٦٠هـ/١٠٦٨م) النظر في شؤونه العامة، وقد وصف لنا ابن الجوزي حالة البيمارستان العضدي قبل تولى الشيخ الأجلّ لنظارته، فقال: "تولى ابن يوسف المارستان وهو لا يوجد فيه دواء ولا طبيب، والمرضى ينامون على بواري النقض، فطبقه بخمسة وعشرين ألف طابق، ورتَّب فيه ثمانية وعشرين طبيباً، وثلاث خِزَانات، وابتاع له أملاكاً نفيسة".[٦] ويضيف مؤلف كتاب "دليل خارطة بغداد" تفصيلات مفيدة عن جهود الشيخ الأجلّ في المارستان العضدي نقلاً عن "سبط ابن الجوزي" في كتابه "مرآة الزمان" في أحداث سنة (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) ما نصه: "فى هذا الوقت نظر عبدالملك في المارستان العضدي وكان قد خلا من دواء وطبيب وشراب، وكان المرضى على وجه

---

(١) القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص ١٤٤.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ١١٢/٧

(٣) الساعور : مقدم الأطباء ورئيسهم؛ القفطى، تاريخ الحكماء، ص ١١٨؛ الزبيدى، ص ٤٦٨ مادة سعر؛ جرجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ٤٦٨؛ تاج العروس، ١/ ١٨٩.

(٤) ذيل كتاب تجارب الأمم للوزير أبى شجاع محمد بن الحسين الملقّب ظهير الدين الروذراورى، تحقيق: ابو القاسم امامى، طهران، ط ٢، ١٣٧٩هـ، ٤/ ٦٩.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٤١١.

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ٢٥١/٨؛ وكذلك ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠/ ٥٨.

الأرض، وعند المريض بصلة يشمها فعطش أحدهم فقام بنفسه إلى خب الماء فوجد حمأة ودوداً، وكان أبو الحسن محمد بن المهتدى[١] قد رد أمره إلى يهودي فاستولى عليه، وأكل أوقافه ... فأول ما فعل عبدالملك أن انتزع أوقافه من أيدي الطماعين فيها والمتغلبين عليها، وضمنها بما وفر ارتفاعها توفيراً لم يعهد مثله، وشرع في العمارة، فقيل إنه طبق المارستان بخمسة ألاف طابق، وقيل بعشرة ألاف طابق، وكان على سوق فيه دكان قد دثر، فأعادها وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها شيئاً كثيراً، وأقام الفرش واللحف للمرضى والأرايج الطبية والأشربة والثلج والمستخدمين من الأطباء والفراشين، فكان فيه ثمانية وعشرون طبيباً ونساء طباخات وبوابون وحراس والحمام والبستان إلى جانبه فيه أنواع الثمار والبقول والسفن على بابه تنقل الضعفاء والفقراء، والأطباء ينتابونهم بكرة وعشية وينامون عندهم بالنوبة، وكان فيه عدة خباب فيها السكر الطبرزد ذو البلوج [٢]، واللوز، والمشمش، والخشخاش، وسائر الحبوب، والبرانى[٣] الصيني وفيها العقاقير، وأربع قواصر[٤] فيها الأهليلج[٥] الأصفر، والكابلي والهندي، وأربع قواصر تمر هندي، وزنجبيل، وعود، وند مسك، والروائد[٦] الصيني في البرانى، والترياق الفاروقي، وجميع العقاقير، وصناديق فيها ثياب جدد للمرضى، ومناديل، وصناديق فيها أكفان، وقدور كبار وصغار، وآلات، وأربعة وعشرين فرَّاشاً، وأشياء ما توجد فى دور الخلفاء والملوك"[٧].

ومن خلال المقارنة بين النص الذي أورده ابن الجوزى فى حالة المارستان العضدي قبل تولى ابن يوسف الشيخ الأجل لنظارته؛ وبين النص الذي ذكره لحالته من بعد اضطلاعه بإدارته؛ يتبين لنا مدى التقدم والتطور الذي أحرزه في مختلف النواحي سواء أكان في تعمير بناياته وصيانة أوقافه، وتزويده بما يحتاج من الأثاث والأدوية والمؤن والأطباء وغيرهم من العالمين، وزيادة مخصصات الطعام للمقيمين فيه؛ أو تيسير وسائل النقل والختان للفقراء والضعفاء.

ومما سبق عرضه يتضح أن هذا المارستان كان كاملاً في كل شيء، وهو ما يدل دلالة واضحة على مدى اهتمام عضد الدولة[٨] ببنائه وترتيبه، ومدى جاهزيته وتنظيمه. ولقد قام الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/ ١٠٣١-١٠٧٥م) بتجديد هذا المارستان.

---

(٣) هو محمد بن علي بن محمد المعروف بابن الغريق (ت ٤٦٥)، ابن الجوزي، المنتظم، ٢٨٣/٨

(٢) عصير السكر المطبوخ ثلاث مرات، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، ص ٤٦.

(٣) البراني جمع البرنية على وزن الغريبة ، وهي اناء من خزف؛ الزبيدى، تاج العروس، ١٣٧/٩ مادة البرنى

(٤) القواصر: جمع قوصرة

(٥) الأهليج: وهو ثمر معروف على اقسام منه أصفر ومنه أسود وهو البالغ النضج ومنه كابلى وله منافع جمه ذكرها الاطباء في كتبهم؛ كتبهم؛ الزبيدى تاج العروس ، ١١٦/٤ مادة هلج

(٨) الرواند، وهو بارد جيد للكبد وهو اربعة أنواع؛ الزبيدى: تاج العروس، مادة رود، ٣٦٠/٤.

(٩) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ٤٧٢/٨.

(٧) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٤١٦.

(٨) عضد الدولة: فناخسرو بن الملك ركن الدولة الحسن بن بويه مولى سلطنة فارس بعد عمه عماد الدولة، واستولى على العراق والجزيرة، وأتت له الأمم، وهو أول من لقب بشاهنشاه في الإسلام، وأول من خُطب له على المنابر في بغداد بعد الخليفة، ولُقِّب بلقب

ومع دخول السلاجقة بغداد (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)؛ قام السلطان السلجوقي طغرلبك (٤٢٩-٤٥٥هـ/ ١٠٣٧-١٠٦٣م) بالمحافظة على عمارة البيمارستان العضدي، وأوْلَى جماعة من كبار الموظفين في الدولة العباسية للإشراف عليه[١].

المارستان العضدي في العصر العباسي الأخير:

قام الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) بجهد كبير في إعادة الرونق ومستوى الخدمة إلى المارستان، وقد قال ابن جبير أثناء زيارته لبغداد سنة (٥٨٠-١١٨٤م): "بين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهى مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة ويتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم كل ما يحتاجون إليه وبين أيديهم قومه يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت ومرافق المساكن الملوكية والماء يدخل إليه من دجلة"[٢].

واستمر اهتمام الدولة بهذا البيمارستان من خلال تجهيزه بمختلف الأدوية والعقاقير؛ ففي سنة (٥٩٩/١٢٠٢م) توفيت زمرد خاتون أم الخليفة الناصر فأشارر بحمل ما في خزانتها من الأدوية والعقاقير إلى المارستان العضدي، وقيل أن ثمنه يقدر بآلاف الدنانير[٣].

كذلك؛ حضر الخليفة الناصر بنفسه لزيارة للمارستان، وشاهد بستاناً كبيراً وجميلاً بجواره، وهو يعود إلى تاج الدين ابن رئيس الرؤساء فاستحسنه الناصر، وأمر أستاذ الدار أن يشتريه من أولاد تاج الدين أصحاب البستان، فتمت الموافقة، وتم إحضار الشهود واشترى الخليفة البستان منهم بكامله بمبلغ كبير قدره ثلاثمئة ألف دينار، وقد اشترى الخليفة هذا البستان ليكون قريباً من المارستان، وليتفقد أحوال المرضى، أو ليضمه إلى أرض البيمارستان ويعطيه أكثر مساحة، وأياً كان الأمر فهذا يدل على مدى اهتمام الخليفة الناصر بأن يطوِّر من المارستان، وبفضل جهود هذا الخليفة صار المارستان أكثر تخصصاً في فروع الطب، فأصبح فيها الجرائحية[٤]، والكحالة[٥]، والطبائعيون[٦] والمجبرون[٧]، والنفسانيون[٨]، وغيرها من أقسامه، وصار فيه المسئولون عن أقسام النساء وأقسام الرجال، وصارت هناك أقسامٌ الخدم والفرَّاشين والممرضات والممرضين والمسئولين من رؤساء الأطباء، وذوي المراتب المختلفة، وصارت هذه المؤسسة تجذب حولها الأبنية السكنية والأسواق، والحارات الجديدة، وأخذ التطور

تاج الملة، ويُعرف عنه أنه كان أديباً ومشاركاً في فنون العلم، حازماً لبيباً، إلا أنه مغالياً في التشيع، توفى عام ٣٧٢ هـ /٩٨٢ م .ابن خلكان ص ٢٩٩-٣٠٠.

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٤١٦.

(٢) ابن جبير، رحلة بن جبير، بيروت، د.ن، ص ٢٣.

(٣) ابن جبير، رحلة بن جبير، بيروت، د.ن، ص ٢٣.

(٤) الجرائحية: هم من يقومون بالعمليات الجراحية .الرازي، الحاوي، ج ١، ص ٣٩٧ . ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٤١٦.

(٥) الكحالة: من يقومون بعلاج أمراض العيون .ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٤١٦.

(٦) الطبائعيون: المختصون بالأمراض الباطنية والداخلية .ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٤١٦.

(٧) المجبرون: المختصون بالكسور وتجبيرها .ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٤١٦.

(٨) النفسانيون: المختصون بالأمراض النفسية والعقلية .

يلحق بالمارستان مع اكتشاف النواقص من المستلزمات الطبية؛ حتى أصبح المريض يعرض نفسه على الأطباء، فتشخص حالته المرضية على أكمل وجه، ثم يتم التقرير بشأنه[١]. وأصبح المارستان يوفر كل ما يحتاجه المريض والطبيب معاً، كما أصبح المارستان أكثر زخرفة، وطُلي باللون الأبيض، خصوصاً في غرف المرضى، وبعض الألوان الأخرى في الممرات.

كذلك؛ تطورت العمليات الجراحية في المارستان العضدي، وعُرفت المواد المسكنة لعلاج المرضى[٢] مثل البنج[٣]، والذي يُظَنُ أنه اختراع حديث، فقد عرفه الأطباء واستخدموه في المارستان العضدي أثناء عملياتهم الجراحية، واستخدموا معه نبات الزؤان[٤] الذي يجعل المريض يفقد حواسه، فتطور المارستان وأصبح به مصانع أدوية وعيادة خارجية لصرف الدواء، وخزانة كبيرة لحفظها، كما أضيفت قاعات كبيرة داخل المارستان لتدريس الطب[٥]، وكانت الخدمات مجانية، موكولة على الدولة تشمل أجور الأطباء، وخدمة المرضى، وكانت أجورهم حسب مراتبهم العلمية[٦]، وساعات العمل، وكل له اختصاصاته، ومنهم من يذهب للعمل في الصباح الباكر، ويباشر عمله في المارستان، وكذلك اكتسب الأطباء الخبرة نتيجة فترات العمل الطويلة، فهناك من عمل طبيباً في المارستان لمدة تزيد عن الخمسين عاماً، وبرعوا في إخراج الحصى وعمليات الكلى للمريض[٧]. وكان الخليفة الظاهر ممن وُصف بالعطف على المرضى، وكثرة الزيارات لهم في المارستان العضدي، قال ابن الكازروني في ذلك " كان كثير التردد إلى المارستان والتطلع على أحوالهم رفقاً بهم ورحمة"[٨] .

ونظراً لهذه الرعاية المستمرة التى حظى بها المارستان العضدى من جانب الدولة والأفراد على حد سواء فقد استمر فى تقديم خدماته الصحية للناس، بالرغم مما أصابه من الخراب من جراء فيضان دجلة فى فترات مختلفة، ولكن النهاية الحقيقية لهذا البيمارستان كانت فى حصار هولاكو لبغداد سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، حيث اتخذ بعض قواده محلة البيمارستان العضدى قاعدة لهجومه ولا ريب فى أن هذا الحصار كان له اثر مباشر فى تخريب البيمارستان العضدى.

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٥٦٥.

(٢) القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص ١٦٢ . ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ١٢٣.

(٣) البنج: عشب يستعمل للراحة والاسترخاء والتخدير .ابن البيطار، الجامع، ج ١، ص ١١٧.

(٤) الزؤان: عشبة تنمو مع الحنطة، وتسمى أيضاً الدمثة والشيلم، وهي نبات مسكر، ومسكن للآلام .انظر: ابن البيطار، الجامع، ج ٢، ص ١٧٤.

(٥) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٦٢٨ .

(٦) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٤٨.

(٧) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٤١٦.

(٨) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٥٠.

إدارة المارستان العضدي في العصر العباسي الأخير:

كان للمارستان رئيس للأطباء يسمى الساعور، ولكل قسم من أقسامه رئيس، فكان فيه رئيس للأمراض الباطنية، ورئيس للجراحين، ورئيس للكحالين، أما عدد الأطباء في المارستان العضدي فكان يتوقف على سعة المارستان، فيصل في بعض الأحيان إلى أربعة وعشرين طبيباً، وكانت النظارة على المارستان معدودة من الوظائف الديوانية العظيمة، وكانت ألقاب أرباب الوظائف على النحو التالي:

١ – رئيس الأطباء؛ وهو الذي يحكم على طائفة الأطباء، ويأذن لهم في التطبيب ونحو ذلك.

٢ – رئيس الكحالين؛ وحكمه في الكلام على طائفة الكحالة حكم رئيس الأطباء في طائفة الأطباء.

٣ – رئيس الجرائحية؛ وحكمه في الكلام على طائفة الجرائحية والمجبرين كالرئيس المتقدم.

ونظراً لأهمية منصب نظارة المارستان؛ فقد كان يتولاه أحد الأمراء أو أحد الأشراف، ويتصف المديرون بالقدرة والثقافة العالية، ويتصلون بقصر الخليفة كأحد الوزراء، ولهم الإدارة التامة والمراقبة وحفظ المؤن والأدوية والأثاث، وفي بعض الأحيان إدارة الوقف، ويلي المدير المراقب، ثم الأمناء والخدم، وتحت يده ناظر الوقف الذي يشرف على أوقاف البيمارستان، ويقدم ميزانية الواردات والمصروفات لرئيس البيمارستان الذي يبت فيما يرى في صالح البيمارستان وراحة المرضى[١].

وكان يعاون رئيس الأطباء؛ رؤساء مختلف الشُعب، ويعاون هؤلاء معاونوهم وتلاميذهم. وكان رؤساء الشعب ذوي مقدرة فائقة ومعرفة عميقة، يترأسون الشعب ويراقبون المرضى يومياً، ويستشير بعضهم بعضاً، ويعطون الوصفات اللازمة شفهياً وأحياناً خطياً، وتشمل الوصفات الأغذية والأدوية، وكثيراً ما كانت تعقد الاستشارات والملاحظات اليومية، مما ييسر للطبيب متابعة حالة المريض بدقة وعناية، وكانوا يكتبون تاريخ المرضى في سجلات تحفظ في المارستان[٢].

أقسام المارستان العضدي

المارستان العضدي انقسم بشكل عام إلى قسمين، قسم للذكور وقسم للإناث، وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلات ومعدات طبية، وعدد كبير من الخدم ورجال ونساء، وكل قسم له قاعات مختلفة منها الباطنية، وأخرى للجراحة، والكحالة والتجبير وغير ذلك من القاعات[٣]، والأقسام نفسها مقسمة إلى شعب، ومن ميزات هذا البيمارستان أن ماء دجلة كان جارياً فيه، وموقعه كان مناسباً، وكان له أطباء مزودون بصيدلية وعليها مسئول يسمى مهتار[٤]، ولهاعيادة خارجية، حيث يأتي المريض ويتناول الدواء ليتعاطاه في منزله كعلاج منزلي، وهناك علاج داخلي عندما يقيم المريض في البيمارستان داخل القسم المخصص له، فيعطى العلاج اللازم، ولأهل المريض

---

(١) ينظر: ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٤٢٧.

(٢) ينظر: ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٤٢٩.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٤١٦ .

(٤) المهتار: هو المسؤول عن جماعة من الصيادلة، ويسمى بمهتار الشراب خاناه .القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩.

حق الزيارة له، كما كان البيمارستان يعمل ليل نهار على مدار الساعة[١]، ولقد ضم هذا البيمارستان مدرسة لتعليم الطب والصيدلة، وتطبيق العلوم الطبية[٢]، وكانت القاعات في البيمارستان تُدفأ شتاء[٣]، وتُبرد صيفاً، حيث توضع المراوح[٤] الكبيرة الممتدة من طرف القاعة إلى الطرف الثاني، وكانت أراضي القاعة تغطى بأغصان شجر الحناء أو الرمان أو بشجر المصطكي[٥]، أو بأوراق الشجيرات العطرية، ولتخفيف ألم المرضى في البيمارستان من طول الانتظار، وطول الوقت كان المؤذنون في المسجد يؤذنون وقت السحر وقبل الفجر بساعتين، حتى يخفف قلق المرضى الذين أضجرهم السهر وطول الوقت[٦].

١ – قسم الجذام:

وهو قسم مخصص لمرضى الجذام أو البرص، ويعزل فيها المرضى عن المجتمع كلياً؛ حتى لا تنتقل العدوى لغيرهم، لذا أمر الخليفاء ألا يخرجوا كي لا ينقلوا المرض بين العامة، وأُجريت عليهم الأرزاق، ومنذ عهد الخليفة العباسي المأمون عام (٨١٣–٨٤١هـ/ ١٩٨–٢٢٧م) الذي بنى بيوتاً لمرضى الجذام خاصة بهم؛ فقد سار على نهجهم معظم الخلفاء والحكام العباسيين؛ نظراً لخطورة هذا المرض وانتشاره، ومحاولة من دار الخلافة لحماية الناس من الجذام في بغداد، فجُعلت لهم أماكن خاصة، بحيث لا يُسمح لمن فيها بالاختلاط ببقية أقسام المارستان الأخرى[٧]، وفي هذا الصدد يشير "عيسى" إلى أن أول مارستان لمثل هذه الأمراض بُني في أوروبا في القرن الثاني الثاني عشر، حيث نقله الصليبيون عن بغداد وأهل الشام والقاهرة، وكان المصابون بمرض الجذام يُحبسون، وتُجرى عليهم الأرزاق والمعالجة مجاناً[٨].

٢ – القسم الخاص بالمجانين:

كان بالبيمارستان العضدي قسم كبير للمجانين، وعرف عن هذا البيمارستان أنه كان بداخله سلاسل حديدية، وجدير بالذكر أن هذا القسم من المارستان انقسم إلى قسمين: أحدهما للرجال وآخر للنساء، والنساء كانت تلبس أحسن الثياب، ويوضع لهن أفضل الطعام والعطور، وهكذا الرجال، وهذا دليل على مدى اهتمام الأطباء وإدارة البيمارستان بالمرضى المجانين، ومعاملتهم معاملة إنسانية راقية كما أمر بها الإسلام[٩]، وكان الوزير علي بن

---

(١) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٤٨ .

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٧٣٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٠ .

(٥) المصطكي: هو نوع من النبات، يستخرج منه اللبان والعلك، شبيه بالحبيبات، وهو ما يعرف لدينا بالمستكة ويستعمل كدواء للمرضى، ماجد، عبدالمنعم، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط ٧، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م..

(٦) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٧٣٢.

(٧) ينظر: ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٧٥٢.

(٨) أحمد عيسى، مرجع سابق، ص ٨٧

(٩) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٣٠١.

عيسى الجراح يكتب إلى متولي الوقف الذي ينفق منه على البيمارستان قائلاً: "يجب أن يدفأ المرضى والممروضون بالأغطية والكسوة والفحم، ويقام لهم القوت ويصل إليهم العلاج"[١]. فكانوا يلقون عناية خاصة ويعالجون علاجاً يمتاز بالرحمة والإنسانية[٢]، وتوفير مُرافق يأخذ المريض بالرفق واللين، ويصحبه بين الحدائق وبين الخضرة للترفيه للترفيه عن نفسيته، وينظر إلى الزهور، ويقرأ عليه القرآن، كما يوفر لهم الأطباء والمشارفين[٣] والعمال والخدم، ويعالج نفسياً كما ذكر بأن الأوقاف الإسلامية كانت تخصص لمرضى الأمراض النفسية خادمين لكل مريض، يخلعان عنه ثيابه في كل صباح، ويغسلونه بالماء البارد، ثم يلبس لباساً نظيفاً ويحمل لأداء الصلاة، ويسمعانه قراءة القرآن، ثم يفسحانه في الهواء الطلق، ويستمتع ببعض الأصوات الجميلة، وكان المجانين يستمعون إلى الموسيقى المهدئة لهم[٤]، وكان يزرع أمامهم أنواع مختلفة من الزهور في الحدائق[٥]، وغالباً ما تزرع أمام حدائقهم حدائقهم حتى تدخل البهجة إلى قلوبهم، وتتمتع أنظارهم برؤيتها[٦]، وبينما كان المسلمون في العصور الوسطى يهتمون بالمرضى المجانين كانت أوروبا تداوي المجانين بالضرب المبرح، في حين اهتم البيمارستان العضدي بأمراض الطب النفسي محاولة منه لرفع الكابوس[٧] الذي يرزح عنده المريض، وخصوصاً الأمراض الوهمية والأصوات النفسية والصدمات واستخدموا لهم الموسيقى للترفيه عنهم والتخفيف من مشاكلهم[٨].

كان للبيمارستان أوقاف تعوله، وكانوا يسجلون الوقف في حجج مكتوبة، وينقشون بعض ما فيها على الحجارة، ويبينون فيها أن الغاية هي تشييد البيمارستان والاعتناء بالمرضى، وكانت عائدات الأوقاف بمثابة المداخيل الأساسية التي تفي بحاجات البيمارستان من طعام ولباس ومحروقات وأدوية ورواتب الأطباء والممرضين وبقية العاملين في المؤسسة[٩].

وكان من أهم أقسام البيمارستان العضدي الأخرى غير ما سبق:

خزانة الشراب:

وهي الصيدلية الملحقة بالمارستان، وقد عرفها أبو العباس القلقشندي على الشكل التالي: "هي الخزانة المعبر عنها في زماننا- أي زمن القلقشندي-، بالشراب خانة، وكان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة والمربَّات

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٣٠١ .

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٣٠٢ .

(٣) المشارفين: جمع مشارف، وهو المسؤول، أشرف الشيء أي أعلاه، وشارف الرجل غيره .الرازي، مختار، ج ١، ص ١٤١.

(٤) أحمد عيسى، تاريخ، ص ٧٣.

(٥) الذهبي، سير أعلام، ج ٢١ ، ص ٣١٥.

(٦) أحمد عيسى، تاريخ المارستانات، ص ٢٥٦ .

(٧) الكابوس: عند الأطباء أن يتخيل النائم في النوم خيالاً يقع عليه ويعصره ويضيق النفس ويمنع الحركة، وهو منذر بالصرع .ابن منظور، لسان العرب، ج ٦، ص ١٩٢ .

(٨) الذهبي، سير أعلام، ج ٢١ ، ص ٣١٥.

(٩) عبد المنعم ماجد، مرجع سابق، ص ١٢٤

الفاخرة وأصناف الأدوية، والعطريات الفائقة التي لا توجد إلا فيه، وفيه كذلك من الآلات النفيسة، والآنية الصيني من الزبادي والبراني والأزيار ما لا يقدر عليه غير الملوك". وكان للشرابخانة رئيس يسمى رئيس صيدلاني المارستان، وكانت الصيدلية في بادئ الأمر تابعة لعلم الطب، غير مستقلة عنه إذ كان الطبيب في الوقت نفسه صيدلانياً، وكان له أعوان يساعدونه في عمله، فيجمعون له الأعشاب الطبيعية. وكان ثمة تجار يتعاطون تجارة العقاقير والمواد الطبية، كما كانوا يتعاطون تجارة البخور والتوابل وغير ذلك، وكان الطبيب على رأس هذه الشبكة، يتولى صنع الدواء وتركيبه في دكانه، ثم يقدمه للمريض ويقبض ثمنه(١).

المكتبات:

كان البيمارستان العضدي مزود بمكتبة تضم المفيد من مخطوطات أبقراط وجالينوس وأطباء العرب، يجتمع فيها الأساتذة والطلاب بعد جولات الصباح، وكانت الكتب كثيرة ومتوافرة. يقول ابن أبي أصيبعة: "وكان لخلفاء بني العباس أوقاف كثيرة من كتب ومصنفات مودعة في مكتبة المارستان، ومثل ذلك كان السلطان نور الدين محمود بن زنكي قد وقف على البيمارستان النوري جملة كبيرة من الكتب الطبية، وكانت في الخرستانين (الخزانتين) اللذين في صدر الايوان"(٢).

الإشراف والرعاية الطبية في المارستان العضدي:

كان الإشراف الطبي في البيمارستان العضدي من صلاحية رئيس الأطباء فقط الذي كان يتم اختياره من خلال امتحان يحضره مائة منافس له ليبين أنه أمهرهم في مجاله. وبعد تسلمه لمنصبه يكون له فريق من الأطباء يجاوز عددهم الأربعة والعشرين، منهم المختص بالأمراض الداخلية، ومنهم بالأمراض العصبية، ومنهم الجراحون البارعون ومنهم المتضلعون في أمراض المفاصل والعظم، ومنهم أطباء العيون. وكان كل واحد منهم يتسلم إدارة قسم ما، مدة من الزمن ثم يتركه لزميله في الاختصاص وهكذا.(٣)

وكانت الرعاية الطبية في البيمارستان حقا للجميع على حد سواء. وكان المرضى يفحصون بعناية كبيرة وتدون أسماؤهم في سجلات خاصة لمعرفة سير المرض فيهم ومتابعته يوما بعد يوم، وكان يقدم لهم الغذاء والدواء مجاناً، ويظلون تحت الرعاية حتى الشفاء التام، وعند المغادرة يصرف لكل واحد منهم ثوب وبعض المال ليقوم بنفقاتهم الضرورية في فترة النقاهة. كما توافرت كل أسباب الرفاهية في هذا البيمارستان من أسرة وثيرة ناعمة إلى حمامات فاخرة، بالإضافة إلى قاعات للموسيقى وأخرى مخصصة للمكتبات.

وقد كان هناك اهتماماً كبيراً بصحة المكان، من حيث الحرارة والرياح والرطوبة، وإنارة البيمارستان ومدى الحرارة فيها، ونقاوة هوائها وطهارة مائها وعن إمكانيات الاغتسال به. وكان هناك حرص دائم على إنزال المرضى في أنسب الأمكنة موقعاً وهواءً وصحةً ونظافةً، فكان يشدد على النظافة دوماً وتغيير هواء الغرف بشكل متواصل.

---

(١) عثمان، محمد عبدالستار، المدينة الإسلامية ، الكويت: سلسلة عالم المعرفة ، ع: ١٢٨ ، ١٩٨٨م، ص٤٥.

(٢) حوراني، حميد، قراءة في تاريخ الطب عند العرب، دمشق: دار الأجيال، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص ٧٦.

(٣) شاخت، وبوزورث، المرجع السابق، ص ١٤٩.

وكان الناس في بعض الأحوال يتمارضون ليحظوا بدخول البيمارستان، وكان الأطباء المناوبون يغضون الطرف عن هذا التحايل إذا كان هناك متسع[١].

أثر المارستان العضدي في نهضة الطب وتدريسه:

ازدهر الطب في العصر العباسي بكامله، بينما في العصر الأخير، ورغم حالة التدهور في موازين القوى بحلول الصليبيين وازدياد الحراك المغولي؛ إلا أن أن هذا العصر قد شهد نهضة علمية وطبية بكل المقاييس، فمع نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي استوعب الأطباء المسلمون تلك الترجمات وراحوا يصححون ما بها من أخطاء ويضيفون إضافات جوهرية لهذه الكتب، وهذه هي مرحلة الإبداع والابتكار والتأليف،[٢] وهي المرحلة التي قامت عليها نهضة الطب في العصر الأخير.

لقد كان الأطباء في العصر العباسي الأخير ملمين أحياناً بأكثر من فرع من فروع المعرفة، فكان الطبيب فوق تفوقه في الطب فيلسوفاً، وفقيهاً، وأديباً، ولعل العلامة ابن الجوزي خير مثال على ذلك، فقد كان جيد المشاركة في علم الطب مع فهم وذكاء واستحضار وإكباب على الجمع والتصنيف فيه، ومن مؤلفاته في الطب كتابه (منافع الطب)،[٣] وكان هناك (ابن المارستانية)[٤] الذي كان فاضلاً في صناعة الطب، ويحفظ الحديث، وكان يتميز بموهبته الأدبية، وتولي نظارة المارستان العضدي، وأبو نصر المسيحي، وكان من أطباء الخليفة الناصر لدين الله، وكان يعمل بالمارستان العضدي أيضاً، وفي مجال الطب الإمبريقي (التجريبي/ التعليمي) كان موفق الدين عبداللطيف بن يوسف البغدادي؛ المعروف بابن اللباد؛ يتردد عليه جماعة من طلاب العلم الطبي، وهذا العالم هو الذي نقض كلام جالينوس[٥] القائل بأن الفك السفلي للإنسان يتكون من عظمتين، وأثبت أيضاً أن العمود الفقري للإنسان قطعة واحدة وليس ست قطع كما قال جالينوس أيضاً. [٦] والذي ألف لطلابه (الكفاية في التشريح) و (مختصر في الحميات)، ومقالة من أحد عشر باباً في (حقيقة الدواء والغذاء)، و (اختصار كتاب الأدوية المفردة) لابن وافد، و (مقالة في البادئ بصناعة الطب).[٧]

ويكشف ابن العبري عن أسرة علمية في مجال الطب، ففي حوادث سنة (٦٠٨هـ/ ١٢١١م) توفي المسيحي ابن أبي البقاء النيلي؛ نزيل بغداد؛ وكنيته أبو الخير؛ ويعرف بابن العطار، وكان خبيراً بالعلاج قيِّماً به، له ذكر وقرب

---

(١) القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص ١٧٩.

(٢) نجاة عبد العزيز المطوع، آفاق الترجمة والتعريب، مجلة علم الفكر ، ع ٤، م ١٩، (الكويت: ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص ٦ . ١٣ .

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٣٧٥.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٦٩؛ أحمد عيسى، البيمارستانات في الإسلام، ص ١٩٦.

(٥) جالينوس *Glenos* (نحو ١٣١-٢٠١ق.م) هوطبيب يوناني شهير، عرفه العالم باكتشافاته الطبية المهمة، وقدرته الفائقة على التشريح، كأول طبيب في العالم يقوم بعملية التشريح، وقدأخذ عنه الأطباء العرب، وهناك بعض هؤلاء من صحّح لجالينوس أخطاءه. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٩١؛ فرنارد تونل، المنجد في الأعلام، ص ١٩٥.

(٦) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٦٩٤، ٦٩٥؛ حميد موراني، قراءات في تاريخ الطب عند العرب، (دمشق: دار الجيل، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص ٦٦.

(٧) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٩٤، ٦٩٥.

من دار الخليفة، يطبّ النساء والحواظي، عاش طويلاً، وحصّل مالاً جزيلاً، وخلّف ولداً طبيباً يكنى" أبو علي"،[١] وأبو علي هذا هو ابن أبي الخير بن العطار النصراني النيلي البغدادي المولد والمنشأ؛ الذي ذكره ابن العبري آنفاً، وكان ساعورا[٢] للبيمارستان العضدى[٣] وكان قليل التحفظ في أمر دينه؛ فلما مات أبوه سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م) زال من كان يحترم لأجله.[٤]

ومن الأطباء الذين نبغوا في العصر العباسي الأخير؛ وكان لهم شأن كبير في المارستان العضدي؛ أسرة علمية طبية هي أسرة آل أثردي التي منها جمال الدين أبوالحسن، ووالده هبة الله ابن علي، وسعيد بن هبة الله؛ ساعور البيمارستان العضدي، وأبو علي الحسن بن علي، وعلي بن هبة الله الذي شرح كتاب (دعوة الأطباء).

ومن مشاهير أطباء العصر العباسي الأخير: صاعد بن توما النصراني الطبيب البغدادي[٥] وهو من أشهر أطباء عصره، وكان الطبيب الخاص للخليفة الناصر، وكان يلقب بأمين الدولة، وكان فاضلاً حسن العلاج، تقدَّم في أيام الخليفة الناصر حتى صار بمنزلة الوزراء، واستوثقه على حفظ أمواله، وكان يودعها عنده، وكان يرسله كثيراً في أمور خفية إلى الوزير،[٦] وكان هناك ايضاً الطبيب محمد بن عبدالسلام المارديني وكانت الملوك تخطبه من النواحي والأقطار، وقرأ عليه السهروردي شيئاً من الحكمة ولم يصنِّف مع غزارة علمه، وكان أبو الخير بن المسيحي يفخِّمه ويعظِّم أمره (ت٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)[٧]، وأبو الحسن علي بن أحمد بن هبل البغدادي، ومن أهم مصنفاته (المختارات في الطب)[٨]، وكان من أهل بغداد عالماً بالطب[٩]، وصاعد بن هبة الله بن المؤمل أبو الحسن النصراني الحظيري المتطبب ، خدم الخليفة الناصر وتقرب إليه قرباً كثيراً، وكانت له المعرفة التامة بالطب والمنطق ، وصنَّف كتاباً صغيراً سماه (الصفوة) جمع فيه أجزاء الطب علميّها وعمليّها، وكتاباً عن الختانة لكونها منوطة بالأطباء ببغداد، وكان ينسخ بخطه كتب الحكمة (ت٥٩١هـ/١١٩٥م)[١٠]وأخوه أبو الخير بن هبة الله –أخو السابق ذكره– كان فاضلاً وصنَّف كتاباً لخص فيه مباحث كتاب الكليات من (القانون) لابن سينا سماه (الاقتضاب) ثم اختصره وسمى المختصر (انتخابات الاقتضاب)، (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م).[١١]

---

(١) ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٤٠.

(٢) هو عميد أو ناظر المستشفى، قال الزبيدي: هو مقدم النصارى في معرفة علم الطب وادواته، واصله بالسريانية (ساعورا) ومعناه متفقد المرضى. انظر : الزبيدي، تاج العروس، ج ٣، ص ٢٦٨.

(٣) أحمد عيسى، البيمارستانات في الإسلام، ص ١٩٧.

(٤) أحمد عيسى، البيمارستانات في الإسلام، ص ١٩٧.

(٥) انظر : ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ٢، ص ٣٦٥؛ مجهول، الحوادث، ص ١٣.

(٦) ابن أبي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٣٧١.

(٧) ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٣٩.

(٨) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٤٠٩.

(٩) ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٤٠.

(١٠) ابن العبري، مختصر الدول، ص٢٣٨.

(١١) ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٣٩.

ومن أطباء دمشق الذين تتلمذوا على أمين الدولة ابن التلميذ واشتغل بالطب في بغداد مدة من الزمن رغم كونه طبيباً وأستاذاً في المارستان النوري بدمشق؛ الحكيم الإمام العالم الفاضل موفق الدين أبو نصر بن أبي الفتح إلياس بن جرجس المطران ، المعروف بموفق الدين بن المطران وأمين أهل زمانه في صناعة الطب وعلمها، وكان جيد المداواة لطيف المداراة، عارفاً بالعلوم الحكمية متعيناً في العلوم الأدبية، وقرأ علم النحو واللغة والأدب على أبي اليمن زيد بن الحسين الكندي، وهو من علماء العصر الأخير، ولابن المطران مصنفات عديدة في الطب منها : (بستان الأطباء ودوحة الألباء)، (المقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية)، (آداب طب الملوك)، (المقالة النجمية في التدابير الصحية)، (كتاب مذهب دعوة الأطباء)،[١] وبعد بغداد عاد إلى دمشق وأقام في خدمة صلاح الدين الأيوبي، وتوفي سنة (٥٨٧هـ/ ١١٨٢م).

ومن الأطباء المعروفين أيضاً في العصر الأخير؛ يحيى بن سعيد بن ماري وكان نصرانياً وصنَّف (المقامات الستين)، وأحسن فيها، وكان بارعاً في علوم الطب وعلوم الأوائل، وعلم العربية والشعر، وكان يرتزق بالطب (ت٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)،[٢] وذكر ابن العبري . عَرَضَاً . الحكيم يوسف السبتي الإسرائيلي البارع في الطب وفي علم الهيئة.[٣].

وكان من أهم الأطباء الوافدين الذين وفدوا إلى بغداد في العصر العباسي الأخير؛ العلامة جالينوس زمانه، أبو بكر محمد بن عبدالملك بن زُهْر الإشبيلي، الذي أخذ الطب عن جده أبي العلاء وعن أبيه وكان عالماً بجميع أقوال أهل الطب، وولي رئاسة الطب في بغداد وبلغ الغاية والحظ الوافر من اللغة والأدب، وكان فوق هذا يحفظ صحيح البخاري متناً وإسناداً (ت٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)[٤].

هذا .. وقد وصل علم الطب في العصر العباسي الأخير إلى مرحلة متقدمة بفضل الاستفادة من حركة الترجمة التي انتشرت انتشاراً واسعاً فيما سبق من فترات الخلافة العباسية، إلى جانب أن الطب كعلم (إمبريقي تجريبي) يعتمد على ثلاثة أركان هي: الملاحظة الشخصية، وملاحظات الغير، والقياس،[٥] وقد استفاد علماء الطب الطب في هذا العصر من كل ذلك، ساعدهم في هذه النهضة الطبية وجود المارستان العضدي في أحسن حالاته، وازدهار الطب علمياً وعملياً بفضل رعاية واهتمام الخلفاء الأربعة المتأخرين.

وكان الاهتمام بالكتب التدريسية المعدة لتعليم طلاب الطب في المارستان العضدي قد وصل إلى أعلى مرحلة من الدقة؛ إذ تم تقسيم المناهج حسب فئتي الطب المعروفة:

---

(١) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ج٢ ، ص٣٢٠ .

(٢) ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٣٨.

(٣) ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٣٨.

(٤) ياقوت، معجم الأدباء، ج ٧، ص ٢١؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٦٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٣٤.

(٥) القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص ١٨٥؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ٨٩، ج ٢، ص ٤٠٩، ٣٩٥؛ ابن العبري، مختصر الدول، ص ٢٣٩.

أ – فئة المدرسين: وهم (الفلاسفة الأطباء) الذين درسوا الطب على أنه جزء من المعرفة، وكان سعيهم لاستكمال المعرفة هو الذي دفعهم لدراسة الطب ، لذا فإنهم يهتمون في المقام الأول بالتنظيم والتقسيم المنطقي حتى وإن لم يكن له سند من الواقع،[١] وابن الجوزي ينتمي إلى هذه الفئة من مؤلفي الكتب الطبية في فترة البحث.

ب – فئة الممارسين: وهم (الأطباء الفلاسفة) وكان اهتمامهم الأول بالمرض وأسبابه وتشخيصه وعلاجه، والفلسفة عندهم وسيلة لبلوغ هذه الغاية، لذلك فهم مهتمون في كتبهم بالمشاهدات والدلالات والفروق بين الأمراض،[٢] وكان ابن هبل وابن التلميذ من هذا النوع في البيمارستان العضدي ، وهو ما يؤكده البدري قائلاً: "كان وما يزال بالإمكان تدريس جزء من علوم أصول الطب (وهو ما يسمى اليوم علوم الطب الأساسية) بمعزل عن المرض، إلا أن دراسة علم كيفية مباشرة الطب (وهو الجزء السريري من التعليم الطبي والعلاج) لا يمكن أن يتم إلا في المشافي وفي مواضع وجود المرضى[٣].

ويجب لفت الانتباه إلى نبوغ عدد من الأطباء في بغداد في العصر العباسي الأخير في ممارسة الفحص الطبي، وجسّ النبض، واستعمال المُرقِّد (المُخدِّر)، وعالجوا الكثير من الأمراض[٤] بالإضافة إلى درايتهم بالتشريح، ودراسة أعضاء الجسم دراسة عميقة، مكّنتهم من إجراء العمليات الجراحية الناجحة، خاصة بعد اكتشاف الأطباء التخدير عن طريق الاستنشاق، وذلك باستعمال المخدر أو الاسفنجة المنومة[٥].

وقد شهد مطلع القرن السابع الهجري مولد أهم عالمين صنفا في علم الطب، وارتبطا به ارتباطاً شديداً ذاع في العالم كله، وأخذ عنهما علماء غربيون كثيرون، أحدهما الوزير علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، وقد صنَّف مصنفه الشهير" طبقات الأطباء"، والثاني هو الطبيب أبن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي (ت٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م)، وهو طبيب ومؤرخ، ولد في دمشق عام (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م)، ودرس الطب ومارسه في المستشفى النوري بدمشق، والمستشفى الناصري بالقاهرة، وقد ألف كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، وألف كتباً مختلفة في الطب، ولكنها فقدت، وأشار إليها في مصنفه الموجود بين أيدينا اليوم، ومن تلك المصنفات: "إصابة المنجمين"، و "التجارب والفوائد"، و "حكايات الأطباء في علاجات الأدواء"، و "معالم الأمم"، "أخبار ذوي الحِكَم"، وله شعر كثير[٦].

---

(١) الشيرازي، نهاية الرتبة ، ص ٩٨؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص ٢٠٣.

(٢) الشيرازي، نهاية الرتبة، ص ١٠١؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص ٢٩٣؛ عبد اللطيف البدري، الموجز في التربية، ص ٩٣٦.

(٣) القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص ٢٩٢؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١، ص ٢٠٣؛ محمد مرحبا، تاريخ العلوم، ص ٢٨١؛ عبداللطيف البدري، الموجز في التربية، ص ٩٣٦.

(٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢، ص ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٦٥٦ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥.

(٥) القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص ١٧٣؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٢ ، ص ٦٥٦، ٦٧٤؛ محمد مرحبا، تاريخ العلوم، ص ٢٨١ –٢٨٥.

(٦) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ترجمة: حسين مؤنس، وإحسان صدقي العَمَد، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٢، ديسمبر ١٩٧٨م، الكويت، ص ص ١٤٦–١٤٧.

دور البيمارستان العضدي في المجتمع

يمكن حصر بعض وظائف هذا المارستان على النحو التالي:

أولاً: مؤسسة تعليمية (مستشفى تعليمي):

يعد المارستان العضدي مؤسسة تعليمية تطبيقية من الدرجة الأولى، لذا يمكن القول إنها أكاديمية علمية مثل مستشفيات هذا العصر، لأنها خرَّجت مجموعات كبيرة من الأطباء والممرضين المهرة، حيث كان الأطباء يشاركون طلبتهم في الحياة اليومية، فكان الطبيب موظفاً في البيمارستان ومدرباً للطلبة، لذا شهد الغربيون بأن طب المارستانات الإسلامية كان يُمارَس وسط ازدهار علمي غير مسبوق، وعرف من وظائف المارستان العضدي تحديداً تخريج جهابذة الطب الإسلامي في شتى فروع الطب، وهو المكان الخاص لحفظ ابتكارات الأطباء وتطوير اختراعاتهم الطبية والحفاظ عليها، وفي هذا المارستان يتنافس الأطباء من أجل مصلحة العامة فيما بينهم، ونتج عن ذلك أن طوروا وألفّوا الكتب الطبية الخاصة بالمارستانات(١).

لقد كان التعليم في المارستان العضدي يعتمد بشكل أساس على التعليم السريري الذي يتضمن تشخيص المرض، والتعرف على أعراضه، والمدواة. وكان الأستاذ يجلس أمامه الطلاب حيث يحتل الصف الأول من حلقة الدرس تلامذته النابهون والمتقدمون في الدراسة، ويلي هذا الصف التلاميذ الذين دونهم في التحصيل أو القدم. ويكون في العادة أحد التلاميذ رئيساً على الحلقة (كالمعيد)، ويبدأ الدرس العملي بمناقشة حالة المريض بين طلاب الصف الأول، فإذا صعب عليهم أمرها دخل بينهم المعلم ليحل لهم ما عسر عليهم فهمه، ولازال هذا الأسلوب متبعا حتى الآن بذات الترتيب: من طبيب معاود إلى طبيب مقيم إلى مدرس إلى أستاذ.

ولقد وصل التعليم السريري ذروته في التطبيق حتى صار قريباً من أسلوب التدريس السريري في الوقت الحالي، فقد كان المعلم يمر على المرضى في المستشفى ومن ورائه عدد من التلاميذ، حيث يستجوب المريض عن شكواه، ثم يفحص بدنه، ثم ينظر إلى قارورة بوله، وقارورة بصاقه، وما إلى ذلك من شواهد المرض وعلاماته على المريض، وبعد المعاينة ينسحب المعلم إلى إيوان خاص (كقاعة المحاضرات) فيجلس على دكّة فيه، ويقعد التلاميذ من حوله على بسط مفروشة، ويبدأ المعلم يستعرض أمام تلاميذه ما يشكو منه المريض، والعلامات والأعراض المرضية التي لاحظها عليه، ويربط بين هذه وبين شكواه، ويصل بالاستنتاج إلى تشخيص المرض، ثم يذكر طريقة معالجته. فإذا صعب على المعلم تشخيص المرض أو طريقة علاجه التقط كتابا من الخزانة الملحقة بالإيوان، وقرأ ما فيه عن ذلك المرض، ويطول الدرس التطبيقي أو يقصر حسب عدد المرضى أو صعوبة الحالات المرضية.(٢)

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٧٣١.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٧٤١.

ثانياً: نفي الخرافات عن مهنة الطب

يعد المارستان العضدي ذا أهمية كبيرة لتطوير مهنة الطب، ونفي الخرافات والأوهام عن هذه المهنة[١]، ويقرر الإسلام أن المرض من الله سبحانه وتعالى، وأن دواءه يجب أن يُبحث عنه فيما خلق الله من أشياء وعناصر، وليس المرض ناتجاً عن شيطان أو أرواح شريرة، كما كان يعتقد أصحاب الحضارات الماضية، كما لا يُبحث عن هذا الدواء عند السحرة والعرافين والكهان، ولهذا منع الإسلام هذه الخرافات، وحذَّر منها، ولهذا قال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم: (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)[٢] ويقول :(من علق تميمة فقد أشرك)[٣]، ولهذا اهتم الخلفاء المسلمون والعلماء ببناء البيمارستانات الطبية والعلمية لمواجهة مثل هذا الجهل وغيره، فمن واجب البيمارستانات حماية المرضى، والحجر الصحي، والوقاية، ومحاربة من يعرف بالجهل ودفعه عن هذه المهنة.

رابعاً: رفع المستوى المادي للأطباء

وكان من مهام المارستان تقديم الأموال والهبات للأطباء، ورفع مستواهم الاقتصادي، فقد بلغ الأطباء درجة عظيمة، فمنذ "بختيشوع" في زمن الخليفة "المتوكل" (٢٣٥ هـ /٨٤٩ م) بلغ من رفعة المنزلة قدرا كبيرا، وحسن حاله وكثر ماله، وكذا كان حال كل من عمل في المارستان، بل حاول بعضهم مجاراة الخليفة في اللباس والزي والطيب والفرش، واستمتعوا بالأموال التي تفوق حد الوصف[٤]، ومنهم من كان يأخذ رزقين، ومنهم من يأخذ ثلاثة أرزاق، خصوصاً لكثرة علومهم وكفاءتهم[٥]، هذا؛ وهناك من الأطباء من كان يعمل في البيمارستان احتساباً لله فيعالج المرضى دون مقابل[٦]، ولا يكون هذا إلا نتيجة وفرة الأرزاق التي كانوا يحصلون عليها.

خامساً: معالجة أهل الذمة

لم تقتصر مهام البيمارستان العضدي ووظائفه على تقديم الخدمات والعلاج للمسلمين فقط أو فئة معينة، بل شملت أهل الذمة من اليهود والنصارى[٧] والطوائف الأخرى جميعاً، فهذا الخليفة المقتدر يوصي ثابت بن سنان بالاهتمام بأمر أهل الذمة على أن يكون علاج أهل الذمة والبهائم بعد معالجة المسلمين، وأوصى أصحابه الأطباء التنقل بين المدن والقرى والمواضع التي بها وباء وأمراض فاشية، وأمر بعلاج العامة وخصص جزءاً كبيراً من نفقة

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٧٣١.

(٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أتى كاهنا فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم"رواه البزار بإسناد جيد قوي، و صححه الألباني في صحيح الترغيب. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد."رواه أبو داود و الترمذي والنسائي وابن ماجه و الحاكم وقال صحيح على شرطهما وصححه الألباني في صحيح الترغيب.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسند الشاميين برقم ١٦٧٨١.

(٤) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٠٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

(٦) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٦٨٢.

(٧) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٨٦.

البيمارستان[١]، فلقد كتب الخليفة المقتدر بالله العباسي عام (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٧-٩٣٢م) أنه أورد إليه توقيع من الوزير علي بن عيسى الجراح يقول فيه أن ينفذ إلى السواد في العراق خزانة أدوية، ففعل ذلك حتى وصل إلى منطقة سورا[٢] علم أن أهلها من اليهود كتب سنان بن ثابت إلى الوزير علي ابن عيسى يعلمه بذلك، ويطلب رأيه في معالجتهم فأعلمه أن يعالج الذمي والملل الأخرى[٣]، ولاشك في أن هذا التقليد ظل سائداً طوال العصر العباسي حتى سقوط بغداد بدليل أن كثيرا من أطباء ومشرفي المارستان العضدي في العصر العباسي الأخير وحتى سقوط بغداد كانوا من أهل الذمة، وهو ما يعني أن العامة من أهل الذمة كانوا يتلقون العلاج حسب العرف السائد طوال عصر الخلافة.

عوامل قصور دور المارستان العضدي في بعض الفترات

أولاً: العوامل الطبيعية

أ. **الكوارث الطبيعية:** كان للكوارث الطبيعية التي مرت ببلاد المسلمين من زلازل وفيضانات دور كبير في إضعاف دور المارستان العضدي، حيث أدت إلى انهيار الوضع الصحي لدى سكان بغداد بشكل عام[٤]، فقد وقع زلزال كبير أدى إلى تدمير المارستان العضدي تماماً عام (٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م)، وضرب المدينة بالكامل، فهلك من الناس ما يقارب خمسة وعشرين ألف نسمة، فما كان من الشيخ أبي منصور بن عبد الملك بن يوسف أن جدد عمارة البيمارستان العضدي، مما حدث له من الزلازل، وجعل به أكثر من ثمانية وعشرين طبيباً، وثلاث من الخزان، وإلى غير ذلك، واشترى له الأشياء الثمينة، وما يلزم من أدوات علاجية وطبية بعد أن تم تدميره بالكامل، وأصبح خالياً من الأطباء والدواء[٥].

كذلك تعرضت البلاد الإسلامية لموجة كبيرة من الفيضانات والسيول والأمطار الجارفة، التي أدت إلى هدم مارستان بغداد العضدي وتدميره تدميراً كاملاً نتيجة هذه الفيضانات خصوصاً في عهد القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/ ١٠٣٠-١٠٧٤م) فعمل الخليفة القائم على تجديده وإعادة بنائه لما أصابه من أضرار بعد أن دخلت المياه إلى البيمارستان من الشبابيك كما جدد السلطان السلجوقي طغرليك في عام (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) البيمارستان العضدي، والذي دخلت عليه المياه الجارفة وإلى حجراته وقاعاته الكبيرة، مما اضطر المرضى إلى مغادرة المارستان، والهروب منه خوفاً من الغرق، ولم يعاد بناء ما تهدم بفعل الفيضان إلا الخليفة الناصر (٥٧٥-٦٢٢هـ/

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٣٠١.

(٢) سورا: من مدن الفرات في العراق، نشأ فيها جمع كبير من اليهود، وقد تأسست في عام ٨٣٤ هـ /٢١٩ م، وبها مدرسة كبيرة خرجت العلماء وأحبار اليهود، وهي مدينة تابعة للسريانيين، مشهورة بالخمور، قريبة على النهر من ناحية الكوفة.؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٨ . ج ٥، ص ٣٢٣.

(٣) القفطي، تاريخ الحكماء، ج ١، ص ٨٦؛ ابن أبي أصيبعة، عيون، ص ٣٠١.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ١٥٧ .

(٥) ابن الأثير، الكامل، ص ٣٨١.

١١٧٩-١٢٢٥م)، وعاد الأطباء يعملون وعاد يؤدي خدماته في معالجة المرضى حتى سقوط الخلافة العباسية عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)[١] على أيدي المغول.[٢]

ثانياً: العوامل البشرية:

تعرض البيمارستان العضدي للإهانة والعبث عندما اتخذه المغول نقطة انطلاق لهجومهم على بغداد عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) وهو ما عرضه للدمار والتخريب[٣] وقد حاول الخليفة القائم بأمر الله عمارته وتجديده، لكن لم يدم ذلك مدة طويلة فبعد عام (٤٢٢-٤٦٧هـ/ ١٠٣١-١٠٧٥م) انتهى دوره كمارستان يقدم الخدمة والعلاج للمواطنين، وتلاشى بفعل الزمن، ويصفه الذهبي بأنه كان كاملاً في معناه، وكثيراً ما كان يتعرض للنهب من قبل اللصوص وقاطعي الطرق، كما حدث وسرقت أدواته ومعداته الطبية والجراحية[٤].

رفعة بنت سعيد الغامدي

---

(١) أحمد عيسى، تاريخ، ص ٧٢.

(٢) ابن كثير، البداية، ج ١٣ ، ص ١٠٩.

(٣) أحمد عيسى، تاريخ، ص ٧٢.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٧١.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

ابن الأثير، عزالدين أبوالحسن علي بن محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ ، ١٠ ج ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس بن القاسم (ت٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

توتل، فرنارد، المنجد في الأعلام، تحرير: لويس عقيل وآخرون، ط ٢٦، بيروت: دار المشرق، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، المسماه رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، د. ط، بيروت: دار صادر، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م.

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: مطبعة الغريب، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

الذهبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن قايماز (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وبشار عواد، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)، مختار الصحاح، بيروت، دار القلم، د.ت.

الروذراورى، الوزير أبو شجاع محمد بن الحسين الملقّب ظهير الدين الروذراورى، ذيل كتاب تجارب الأمم، تحقيق: أبو القاسم إمامى، طهران، ط ٢، ١٣٧٩هـ.

الزبيدي، محمد مرتضى (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، القاهرة، المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م.

الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ٦، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

سبط بن الجوزي، شمس الدين يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، مرآة الزمان وتاريخ الأعيان، د.ط، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٦م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط ٢، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

الشيرازي، عبدالرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: السيد الباز العريني، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

ابن العبري، أبو الفرج، جريجوريس بن هارون الملطي (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، تاريخ مختصر الدول، القاهرة، الآفاق العربية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م .

القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، بيروت، دار الآثار للطباعة والنشر، د.ت.

القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط ٢، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.

الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق: مصطفى جواد وسالم الآلوسي، بغداد، د.ن، ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.

ابن كثير، أبو الفداء الحافظ إسماعيل الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية في التاريخ، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرون، ط ٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

مجهول، الحوادث، المسمى الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، المنسوب خطأ لابن الفوطي، تحقيق: بشار عواد وعماد عبدالسلام رؤوف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر البنا (ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، د. ط، ليدن، مطبعة برايل، ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، ط ٦، بيروت: دار صادر، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م .

ياقوت، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ط ٢، بيروت، دار صادر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

ثانياً: المراجع:

أحمد، منير الدين، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم، ترجمة: سامي الصقار، الرياض، دار المريخ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

البدري، عبداللطيف، وآخرون، التربية العربية الإسلامية (المؤسسات والممارسات)، عمَّان، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ، د. ت.

حمارنة، سامي خلف، تاريخ تراث العلوم عند العرب والمسلمين، الاردن، د.ن، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م.

زيدان، جورجي، تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة: د.ن، ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م.

العلوجي، عبدالحميد، تاريخ الطب العراقي، مكتبة أسعد، بغداد، ١٩٧٦م.

عواد، كوركيس، المدرسة المستنصرية، أول جامعة في العالمين العربي والاسلامي، دار الوراق للنشر، ٢٠٠٨ م.

عيسى، أحمد بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، بيروت، دار الرائد العربي، د. ت.

لوبون، جوستاف، الحضارة العربية، ترجمة: عادل زعيتر، د. ط، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٤هـ/ ١٩٤٥م.

ماجد، عبدالمنعم، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط ٧، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

مرحبا، محمد عبد الرحمن، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، منشورات عويدات، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

حوراني، حميد، قراءة في تاريخ الطب عند العرب، دمشق: دار الأجيال، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ترجمة: حسين مؤنس، وإحسان صدقي العَمَد، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٢، ديسمبر ١٩٧٨م، الكويت.

عثمان، محمد عبدالستار، المدينة الإسلامية، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ع ١٢٨، ١٩٨٨م.

المطوع، نجاة عبدالعزيز، آفاق الترجمة والتعريب، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع ٤، م ١٩، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.